## المبحث الثالث

# التطور التاريخي للدولة

### يمكن التمييز بين المراحل التالية لتطور الدولة التاريخي:

**١ ـ المجتمعات البدائية : Primitive Societies**

الدولة البدائية أو الدولة القبلية كما يسميها البعض تطورت من اجتماع الاسر ذات الاصل الواحد في مجتمع العشيرة التي سرعان ما تلاحمت مع البطون الاخرى المرتبطة معها بصلات القربى مكونة مجتمع القبيلة. وبذلك تم اكتساب القوة والتمتع بفوائد الحياة التعاونية تحت قيادة سلطة موحدة. أي ان «تماسك وحدات المجتمعات البدائية كان يعتمد على التلاحم البشري والجغرافي، لغة واحدة، معتقدات دينية مشتركة، وادراك للفوائد الاقتصادية والعسكرية الناتجة عن التجمع»[٧]، وبعد ذلك تطور تنظيم السلطة في هذه المجتمعات البدائية بدرجات متفاوتة.

**٢ ـ الدول والامبراطوريات القديمة :**

وتشمل هذه الدول الامبراطوريات الشرقية القديمة، ودولة المدينة في اليونان والامبراطورية الرومانية. وان اقدمها تاريخياً هي الامبراطوريات الشرقية أو ما يسمى «بمهد الحضارة» حيث ساعدت الارض الخصبة والمياه الوفيرة والمناخ الدافيء في وادي النيل والفرات والهند والصين على تجمع عدد كبير من السكان. ولقد نشأت المدن والقرى وتداخلت العلاقات ونشطت الزراعة وفنون السلم والحرب.

---

7- G.A. Jacobsen and M.H. Lipman, **Political Science,** Second Edition Re. by William L. Shell. (New York: Barnes & Noble Books, 1979), p. 9-10.

أما في اليونان حيث نمت دول المدينة في فترة تاريخية لاحقة، فان الظروف الجغرافية ذات العزلة الطبيعية والظروف الاقتصادية التي تميزت بالطابع التجاري، قد حالتا دون توحيد مجموعة هذه المدن في امبراطورية واحدة. ولقد عمل الفكر الديمقراطي المنتشر ايضاً على تدعيم اوضاع التجزأة حيث ان الديمقراطيات السائدة التي عاش في ظلها الاغريقيون لم يكن لتطبيقها ان ينجح الا في ظل مجتمعات صغيرة.

والامبراطورية الرومانية بدأت بشكل مدن صغيرة مستقلة عن بعضها البعض مثل المدن الاغريقية ولكن اختلاف ظروفها الجغرافية والاقتصادية - (المدن الايطالية كانت وحدات زراعية، والحواجز الطبيعية في ايطاليا أقل من اليونان) - قد ساعد روما في فرض سيطرتها على بقية المدن الايطالية وتوحيدها تحت لوائها. وهكذا نشأت الامبراطورية الرومانية وتوسعت في الشرق والغرب معتمدة على القوة والقانون ولعبت دوراً مهماً في تنظيم المجتمعات التي سيطرت عليها[8].

## ٣ - دول القرون الوسطى :

أ - التجمع الاقطاعي : Feudalism

بعد قضاء البربريين أو قبائل التيوتون Teutobic Tribes على الامبراطورية الرومانية في الغرب اضمحلت ظاهرة الدولة في أوزوبا وساد نظام الاقطاع. فملوك دولة البرابرة وان استطاعوا تجميع القوى المتناثرة للحرب، الا انهم لم يتمكنوا من فرض وجودهم وحكمهم في الاقاليم والمناطق الاوروبية المختلفة. ولقد ادى هذا الى تطور النظام الاقطاعي Feudal System حيث انفرد كل سيد اقطاعي بحكم الكينونة الاقطاعية التي يسيطر عليها وعمل على حفظ النظام بها. والاقطاعية هي «تجمع اقتصادي وسياسي تتداخل فيه الملكية الخاصة مع السيطرة العامة» أي ان القوى الاقتصادية والعسكرية والسياسية هي واحدة . ولقد عملت الاقطاعية

---

8- Ibid., p. 10-12.

على تنمية الزراعة المحلية وساعدت الكنيسة في تحصيل الضرائب كما ان السلطة الاقطاعية قد عملت على حفظ النظام وتقديم الخدمات وتوفير الحماية العسكرية من الاعتداءات الخارجية والحماية الامنية من الجرائم والحيوانات المفترسة.

والاقطاعية لم تكن دولة بالمعنى الحديث ولكنها كانت مجرد تجميع لافراد أو رعايا يعطون ولائهم لسيد اقطاعي واحد. وتطورت بعد ذلك ظاهرة الهرمية في شكل النظام الاقطاعي حيث ان الكينونة الاقطاعية الاصغر كانت تتبع لوحدة اقطاعية اكبر منها وهكذا. وبالتالي فان السيد الاقطاعي كان يمنح ولائه للاقطاعي الاعلى في الاقليم ويرسل له دفعات مالية ومساعدات عسكرية وبالمقابل كان يتمتع بحماية الاقطاعية الاكبر ويحصل على اراضي وخدمات[9].

ب ـ الملكيات الاوروبية في العصور الوسطى :

لقد مهدت التشكيلة الهرمية في النظام الاقطاعي الى ظهور ملكيات القرون الوسطى في أوروبا التي امتازت بضعف سيطرة ملكوها على المناطق التابعة لهم، ومركز الملك في هذه الملكيات جاء من كونه يمثل المجموع الذي يفوق المجموعة التي يمثلها الاقطاعي. ولكن مفهوم الدولة الحديث لم يتطور في ذلك الوقت لان «البارونات» احتفظوا بسلطتهم الفعلية على مناطقهم ولم يتمكن الملوك من ممارسة سيطرة فعلية على الاقطاعيات وسكانها. في هذه الفترة التاريخية كان سكان اوروبا «يعتبرون رعايا لملوكهم دون ان يكونوا مواطنين في دولة محددة»[10].

فالدولة الملكية في العصور الوسطى في أوروبا كانت مقسمة الى

---

9- J. Roland Pennock and David G. Smith, **Political Science: An Introduction** (New York: The Macmillan Co. 1964) p. 222-224.

10- International Encyclopedia of the Social. Sciences (New York: The Macmillan Company and Free Press 1968) Article by Jashua Prawer, and Shmuel N. Eisenstadt.

اقطاعيات ومقاطعات تحكم بواسطة النبلاء الاقطاعيين الذين «أقسموا ولاءهم للملك ولكنهم احتفظوا بالاستقلال في حكم اقطاعياتهم»[11].

جـ ـ سلطة الكنيسة :

ان ملوك أوروبا في العصور الوسطى لم يواجهوا التحدي من قبل الاسياد الاقطاعيين فقط، ولكن من قبل الكنيسة ايضاً التي حافظت على وجودها بالرغم من سيطرة البرابرة على اوروبا. ومن روما امتد نفوذ الكنيسة الى داخل الاقطاعيات المختلفة بدرجات متفاوتة، وهكذا استطاعت الكنيسة المحافظة على وحدتها وزيادة قوتها وتوسيع مجال سيطرتها. كما ان صراعها مع اباطرة روما اصبح موجهاً ضد ملوك تلك الفترة. وكانت الكنيسة منافساً قوياً للملوك والنبلاء في كسب ولاء الافراد.

ولكن محاولات الكنيسة في تأسيس امبراطورية مسيحية تجمع بين الوحدات الاقطاعية المختلفة قد فشلت بسبب الطموحات الواسعة جداً لحجم هذه الامبراطورية وظهور الحركات الاصلاحية الدينية التي تحدت سلطة الكنيسة في روما وانفصلت عنها، وبسبب تنمية المشاعر القومية التي بدأت بالظهور في ذلك الوقت[12].

د ـ الدولة الاسلامية في الشرق :

بعد القضاء على الامبراطورية الرومانية في الغرب تمكنت من المحافظة على قوتها وسيادتها في الشرق لسنوات طويلة. ولكن ظهور الاسلام وانتشار قوته قد أدى الى التراجع التدريجي للامبراطورية الرومانية الشرقية واضعاف قوتها ومن القضاء عليها. وان سيطرة النظام الاقطاعي وملكيات القرون الوسطى في أوروبا كان يقابله في الشرق تطور الدولة الاسلامية التي امتازت بسلطة مركزية قوية وفعالة سواء في المدينة ايام دولة الرسول

---

11- Jacobsen and Lipman, **Op. Cit.**, p. 13.

12- Pennock and Smith, **Op. Cit., p. 224-225.**

صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين أو في دمشق عاصمة الدولة الاموية، أو بغداد عاصمة الدولة العباسية.

وفي نهاية الحكم العباسي اصيبت مركزية الدولة الاسلامية بالضعف وتجزأت الى دول ودويلات وخلافات متعددة، ولعل من اهمها الدولة الفاطمية والدولة الحمدانية، ودولة المماليك، ودولة الاندلس. ولكن تجزأة الدولة الاسلامية لم تكن مشابهة لتقسيم اوروبا بين الاقطاعيات المختلفة، وذلك لان الكثير من الدويلات الاسلامية التي ظهرت لم تكن صغيرة الحجم كالاقطاعية، ولكنها تمكنت من فرض وجودها وهيبتها فوق مجموعة متعددة من المدن والقرى. يضاف الى ذلك ان نظام الدويلات الاسلامية المتصف بالتجزأة لم يدم طويلاً حيث ظهرت الدولة العثمانية التي استطاعت توحيد كل المناطق واعادت تأسيس الحكم المركزي القوي على المشرق وامتدت سيطرتها الى بعض اجزاء أوروبا، واستمر وجودها حتى قيام الحرب العالمية الأولى.

### ٤ ـ الدولة القومية الحديثة : Modern National State

ان الدولة القومية من حيث الشكل والمظهر هي الدولة السائدة حالياً في العالم. ولعل من المفيد ان نبدأ بتحديد ثلاثة خصائص اساسية تتميز بها الدولة القومية:

أ ـ ان الدولة القومية قد نشأت في أوروبا مع بداية العصور الحديثة بعد قضاء الملوك على نظام الاقطاع وسلطة الكنيسة.

ب ـ ان الدولة القومية كما يدل اسمها قامت على روابط وطنية وذلك بخلاف سيطرة الكنيسة التي قامت على اسس دينية، والاقطاعية التي قامت على الولاء الشخصي.

جـ ـ امتازت الدولة القومية بتوسط الحجم فهي ليست كبيرة مثل الامبراطوريات

بحيث يصعب حكمها وتنظيمها، وليست صغيرة كالوحدة الاقطاعية بحيث لا تستطيع تأمين حاجاتها الاساسية وتوفير وسائل الحماية والدفاع ضد استبداد وعدوان القوى الخارجية[١٣].

وفي نهاية فترة الاقطاع ظهرت بعض العوامل التي عملت على تنمية المشاعر القومية ومنها:

١ - نمو التجارة والطبقات التجارية المعادية للنظام الاقطاعي.
٢ - نمو المدن.
٣ - ضعف سلطة الكنيسة.
٤ - تكوين ثقافات ومصالح جديدة[١٤].

ولقد أدت الروابط الثقافية واللغوية والبشرية وعوامل الحدود الطبيعية الى جمع عدد من الاقطاعيات في ظل وحدات سياسية كبيرة تحت سيطرة الملوك الذين اتحدوا مع سكان الاقطاعيات ضد الاسياد الاقطاعيين وقساوسة الكنيسة. ولا شك ان الدين المسيحي قد لعب دوراً بارزاً في التلاحم الاحتماعي عند بداية نمو الدولة الحديثة ولكن هذا الدور سيطرت عليه القومية والشعور الوطني بعد ذلك.

وتعود الدولة القومية تاريخياً الى القرن الرابع عشر حيث تمكن ملوك فرنسا واسبانيا من اخضاع الكنيسة والاسياد الاقطاعيين الى سيطرتهم. ولقد لعب الملوك دوراً اساسياً في بروز الدولة القومية أي انهم كانوا الطرف الاهم في معادلتها، ولهذا فان البعض يرى أن ميكافيللي كان على حق عندما قال: «ان الدولة تؤسس بواسطة رجال يجنحون للقوة»[١٥].

وبظهور الدولة القومية ظهرت فكرة المواطنة بمعناها الحديث واعطت

---

13- **Ibid,** p.217.

14- Jacobsen and Lipman, **Op. Cit., p. 13-15.**

15- **Pennock and Smith, Op. Cit. 232.**

الافراد صفة المواطنة لدولة محددة بالاضافة الى كونهم رعايا لملوكهم. أي أن فكرة سيادة الدولة كانت مصاحبة لنمو الدولة القومية. ولقد تم ترسيخ وجود الدولة القومية وسيادتها الوطنية في أوروبا بعد معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨م. التي اعترفت بحدود الدول القومية واقرت الاحترام المتبادل لسيادة هذه الدول على اراضيها ومواطنيها[١٦].

وهكذا نشأت الدولة القومية في اوروبا واعتمدت في تنظيمها على نظام ملكي مطلق، وجيش وطني عام، ونظام ضريبي موحد[١٧].

16- **Ibid.**, p. 231-232.

17- Jacobsen and Lipman, **Op. Cit., p. 14.**



obeikandl.com